كلمات عن حافظ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنَةَ الأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي ؛ أيُّها القلبُ المِسكينُ أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : ما لك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إليَّ أنه هو راضٍ مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَه ولم يبق في نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لي . وكنت أعجبُ لهذا الخُلق فيه ولا أدري ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعاً بطابَع اليُتم فلم يعرف منذ أدرك ألا أنه ابنُ القَدَر ؛ تأتيه الأفراحُ والأحزانُ من يدٍ واحدة مقبَّلة كما تنالُ الصبيَّ ألطافُ أبيه ولَطَمَاتُ أبيه . . . .

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ؛ فضحك وقال . أو كأنني أحلم بغير نوم . . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لحِق بربه في سنة ١٩٣٢ فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوماً بروح القبر ، وفي القبر أوله . ولما أزْمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . . فقال : أو تراني لم أمتْ بعد في مصر . . . ؟ إن الذي بقي ميِّت

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قويَّ الملكة في فن الضحك ، كأن القَدَر عوَّضه به ليُوجِدَهُ في الناس عطفَ الآباء ومحبةَ الاخوة . ولم يَخْلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ في زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ في نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكفِّئة تميلُ بها موجةٌ وتَعْدِلها موجة ، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَدَر نظاماً في زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة في هذا الباب ، ووقع إصلاحاً في عيشهم وكانوا إصلاحاً في عيشه ؛ ولو أن الأقدَارَ تُشَبَّهُ بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرَّج منها في مدرسة التجارة العليا . . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة

* * *

وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكل نادرة . فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمَّم هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيماً ، ولكنه دائماً متودِّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلْعة ؛ وكان بائساً ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان في ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلُق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طوالَ عمره مُتَبَسِّطاً مهتزاً كأن له زمناً وحدَه غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مُسْتَنيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلةِ الشِّبَع ، ويَسْتَرسلُ إلى البَطَالة وكأنه مُشَمِّرٌ للجد ، ويستمكنُ الحزنُ منه في ساعة فيتهدَّد حزنه بالساعة التالية . . . .

رأيته في أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشُه وكان يَعُدُّ قروشاً في يده فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة ، فهلمَّ نتعشَّ . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أني تعشَّيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش . وكنت أطالعُ في وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة . وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا في الأصيل عربة وخرجنا نتنزَّه أي خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضي لا يتغير في بؤس

---

(١) لما توفي حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف . فلم نعرض في كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وإنما هي ذكرى وبقايا من الأيام

ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود . وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فناً من الفوضى الانسانية حتى لكأنه حلم شعرى بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتممه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الانسانية رآه جميلاً جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها . وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مطهماً ، وأرى فى شكله هندسة كهندسة الكون تتم محاسنها عقابيحها . وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القفر ......

أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيع المرآة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط فى تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساء اثنتان : فاما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها ؛ ولهذا لم يفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ؛ وبقى شاعراً غير تام ، فان المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه . وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . .

* * *

وتهدم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتم موج الأثير بريداً
حين خلتم أن البروق كسالى (١)

فنظرت إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضع قبلة لقبلتك لهذا البيت ؛ فضحك وأدار لى خده ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

* * *

وشهرة هذا الأديب المظيم بنوادره ، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مجمع عليه ؛ وكان يتقصص النوادر والفكاهات ومطارحات السمر من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فاذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو ، وجعل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الابانة بعطفه ووجهه ونبرات فى لسانه ونبرات فى يده

وهو أسمى هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فاذا استهل سح بالنوادر سحاً كأنها قوافى قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التى بعدها

وقد أذكرنى (القوافى) مجلساً حضرته قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) هلم نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا . وكانت القافية من وزن : تدرها ، أحمرها ، أخضرها الخ ، وجعلت أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الاطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسرد له من حفظه الغريب

أما فى النوادر فالعجيبة التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » وكان داهية ذكياً وظريفاً لبقاً ، وكنت أخالطه وأتصل به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ؛ فلما مدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وماهو ؟ قال : كل لقمة بنادرة

فتهلل حافظ وقال : نعم لك على ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل ، والعشاء حافل ، وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط . وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه . . . .

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به . فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائماً — دعوه لالقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حمية وعلماً ، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى . فقام حافظ فأنشدهم بعض ماترجمه نظماً عن شكسبير ومثله تمثيلاً

(١) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق

أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب . ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نوادره . وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكرٌ أم ثيِّب ؟ فقالت : كثرت الفُتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هـذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تُفلح

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب في تنبُّه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التي كسبهم بها من بعد . ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا . فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...

***

وفنُّ (الشعر الاجتماعي) الذي عرف به حافظ ؛ لم يكن فنَّه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه في طريقته . فلما جاءت إلى مصر الأمبراطورة (أوجيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها :

فاعذرينا على القصور كلانا   غيرته طوارئٌ الحدثان

ولقيتُه بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة ، وكان بها مُدلاًّ مُعجباً شأنه في كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء في ألفاظها ومعانيها وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تخاطب بها الأمبراطورة . فكأنني أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لي : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعي » ، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال : إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي : إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هي الاجتماعيات إلا جمل مقالات الصحف قصائد ... ؟

فالأستاذ الامام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصلُ هذا المذهب الذي ذهب اليه حافظ . وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبني عليها أو يُدخلها في شعره . وهو أحياناً رديء الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً إذ كانت ملكة الفلسفة فيـه كالمعطَّلة ، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها وثرثرتها ...

***

وكنت أولَ عهـدي بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الامام وأنفذتها اليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لي إنه هو تلاها على الامام ، وأنه استحسنها . قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطاني من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه في الشعر كبيرُ معنى . قال : ويحك إن هذا مَبْلغُ الاستحسان عنده

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلاً ... فأرضاني والله أن يكون بيني وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ

وأنا أرى أن « حافظ ابراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » ، لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ في حافظ أنه كان دائماً في حاجة إلى من يَسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى اسماعيل باشا صبري في القصر العيني ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أذُن الامام هي التي ربَّت الملكـة فيه ، وقد بينا هذا في مقالنا في (المقتطف)

وكان تمام الشعر الحافظيّ أن يُنشـده حافظ نفسهُ ؛ وما سمعت في الانشاد أعربَ عربيةً من البارودي ، ولا أعذبَ عذوبةً من الكاظمي ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجِلُّ البارودي اجلالاً عظيما ، ولما قال في مدحه :

فُرْ كلَّ معنى فارسيّ بطاعتي   وكلٌّ نفور منه أن يتودَّدا

قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسىّ وما هو بفارسى ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها . قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعرنى المجموعة التى عندك . . .

أما الكاظمى فكان حافظ يجافيه ويباعده ، حتى قال لى مرة وقد ذكّرته به : « عَقَـقْـناه يا مصطفى ! »

وما أنس لا أنس فرحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده . وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى . ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ، فنال حافظ المدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى الشَرْزَمَة [1] قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « ليه تخلّى همّتك ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجباً بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة

***

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى . ففى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) فظهر فى أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*) . وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى النارة عليهم كزَفيف الجيش وقَعْقَعة السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ، وتكلم عنه الأستاذ الامام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه ، فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربّ الكعبة أنت كاتب المقال ؛ وذمة الاسلام أنت صاحبُه

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى . . .

وغضب السيد توفيق البكرى غضباً من نوع آخر ، فاستمان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استمانة ذهبية . . . . وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحاً يَرِنُّ رنيناً

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعاً ، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر . . . فكان هذا ردَّ نفسه على نفسه [1]

وتعلّق مقالُ المنفلوطى على المقـال الأوّل فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلىّ كتاباً يذكر فيه تعسُّف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول قد وكَلتُ اليك أمرَ تأديبه

فكتبت مقالاً فى جريدة (المنبر) وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكه فأكبّ على قدم الملك حتى شفّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذُنيه فى رجليه ....

***

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين ، حين ظهر مقال (الثريا) ، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيه ؛ فررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما

(١) القرزمة أول قول الشعر حين يكثر الردىء فيه يقال فلان يقرزم

(١) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعد أن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لا يسمى بكاؤها بكاء ....